هيفاء البشير.. صناعة الحياة

بلال حسن التل [1]

منذ بدء الحياة على هذا الكوكب يتطابق البشر في لحظتين هما لحظة البداية ممثلة بالولادة، ولحظة النهاية ممثلة بالموت، لكنهم يختلفون بنِسَب وصور متفاوتة في مسيرة كلٍّ منهم من نقطة بدايته إلى نقطة نهايته، وتمضي الغالبية الساحقة منهم رحلتها بين النقطتين، كل فردٍ منهم منشغلٌ بذاته، مستسلمٌ لروتين الحياة، سائرٌ على خطى من سبقوه، يَعدُّ سنوات العمر التي تمضي في روتين البحث عن المال والعمل والطعام والشراب والانشغال بالذات.. وكلُّها قيودٌ تحررت منها قلة نادرة من البشر على مدار تاريخهم؛ إذ تسعى هذه القلَّةُ إلى مضاعفة سنوات عمرها، فتجعل من الثانية ثواني، ومن الدقيقة دقائق، ومن اليوم أيامًا، ومن الأسبوع أسابيع، ومن الشهر شهورًا، ومن العام أعوامًا، فيصير العمر أعمارًا ممتدةً قرونًا، عندما يُخلَّد ذِكْرُ أفراد هذه الفئة القليلة والنادرة بخلود تأثيرهم، وعندئذٍ يتلاشى معنى عدد سنوات أعمارهم؛ لأنَّ بعض أفراد هذه الفئة لم يعش بحساب العدد إلا عمرًا قصيرًا، لكنَّهم باقون فينا عبر القرون، لأنهم ضاعفوا سنوات أعمارهم بُحسن استثمار رأسمالهم الحقيقي الاستثمار المتميّز؛ فرأس المال الحقيقي للإنسان هو الوقت الممنوح له فوق هذه الأرض، لأنَّه رأس المال الذي لا تُعوَّض خسارته، مثلما تُعوَّض خسارة المال أو الجاه أو المنصب، وهذا هو سرُّ المعادلة الذي اكتشَفتْه سيدة هذا النهار، هيفاء البشير، التي اجتمعنا لنتعلم من تجربتها، وأوَّل ذلك أنَّ عمر الإنسان لا يُقاس بعدد سنيه، بل بقدرته على العطاء لغيره.

(1) كاتب وإعلامي أردني.

وفي هذا تقول السيدة هيفاء: «إننا لا نعيش لأنفسنا فقط حينما نعيش للآخرين، وبمقدار ما نضاعف إحساسنا بالآخرين يتضاعف أحاسنا بقيمة الحياة، فعندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرةً مفرغة تبدأ من حيث بدأنا الوعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود مهما طال الزمن. أما عندما نعيش لفكرة أو مبدأ، فإنَّ الحياة تبدو طويلة عميقة تبدأ من حيث بدأت الإنسانية، وتستمرُّ بعد مفارقتنا لهذه البسيطة»؛ وهذا قولٌ جسَّدتْه السيدة هيفاء مُمارسةً حقيقيةً عبر مسيرة حياتها عندما صار الإيثار عنوانًا بارزًا من عناوين حياتها.

وتقدِّم السيدة هيفاء البشير في ذلك طريقًا واضحًا للوصول إلى صناعة الحياة السعيدة الهادئة المطمئنة الرضيَّة التي تضاعف من عدد سنوات العمر، فتجعلها ممتدةً امتدادًا يُخلّد صاحبها بِذِكْرِهِ أطولَ بكثيرٍ من عدد السنين التي تدبُّ بها قدماه على وجه الأرض. وحتى نصل إلى هذا النوع من أنواع الحياة علينا تعلُّم الدرس الثاني من السيدة هيفاء البشير؛ فهي تعطينا وصفة إطالة العمر وغناه في قولها: «إنَّ انقضاء السنين لا يفقد القلب أن يظلَّ غضًّا طريًّا ومَخْزَنًا مليئًا بالمحبة وينبض بالإنسانية، ولا يضيرنا إن انحنى الظهر وثقلت الخطوات بتراكم السنين؛ فسنابل القمح تنحني لأنها مليئة بالخير، والسعادة تتجلى بالعطاء، والقناعة تتحقق برضى النفس».

لقد ذاقت السيدة هيفاء حلاوة العطاء فجعلته دستورها في الحياة، وهو دستورٌ أخلاقيٌّ شرحته السيدة أم مازن بقولها: «إنَّ النشاط التطوعي اختيارٌ حر لا يخضع لروابط وظيفية بمفهومها القانوني لتنظم العلاقة مع المتطوعين الذين يرتّب عليهم ضرورة احترام ضوابط العمل ومتطلباته، والالتزام بالمبادىء والقيم وميثاق النزاهة، وعدم قبول أيِّ مقابلٍ مادي لمجهوداتهم التطوعية؛ فهناك ميثاقٌ أخلاقيٌّ ذاتيٌّ ضابط للسلوك يمنع أيًّا من العاملين في العمل التطوعي من تحقيق أيِّ منفعة شخصية أو أجر».

وأوردتُ هذه الاستشهادات من أقوال السيدة هيفاء للاستعانة بها لإلقاء المزيد من الأضواء للتعّرف على هويتها، وهي هوية تشرحها صاحبتها عندما تقول: «آمنت دائمًا أنني على ثغرٍ من ثغور الأسرة والمجتمع، وهذا رتَّب عليّ التزامات وواجبًا للقيام بدوري تجاهها، من غير أيِّ حسابٍ للربح أو الخسارة؛ فأشرعتُ وجداني للجميع، وانتصرت لحاجاتهم، لأنَّ مساعدة الآخرين هي الأسمى قيميًّا، وإنَّ العمل عبادة، وقيمته معنويةٌ تتجاوز أيَّ مردودٍ مادي، وهو جسرٌ للسعادة والرضا، كما أنَّ دور المرأة أساسيٌّ ويجب أن يكون محوريًّا وليس هامشيًّا، وإن كانت رعاية الأسرة المسؤولية الأسمى لها، لكنَّ ذلك لا يمنعها من أن تسهم في رفعة مجتمعها، وإصلاحه ورقيِّه وتقدُّمه».

ومن ذلك يتجلَّى العالم الخفي في شخصية السيدة هيفاء البشير، للفلسفة والقناعات التي تحرِّكها لتبرز ميزة أخرى لها، وهي أنَّها عاشت أفكارها وقناعاتها، وحوَّلتها وقائع ملموسة على الأرض، وتجسدها مؤسسات يلمس الناس أثرها في حياتهم، فكان ثمرة ذلك كله عُقدًا ماسيًا من المؤسسات التي تخدم الإنسان في كل أطواره؛ إذ كانت أولى حبَّات هذا العُقد جمعية أصدقاء المستشفى، ثم جمعية الأَسِرَّة البيضاء، ودار الضيافة للمسنين، والاتحاد النسائيّ العام، وجمعيّة التأهيل النفسي الصفصاف، ومنتدى الرواد الكبار، وصولًا إلى الائتلاف الطبي لحماية المريض. وقد أنجزتْ ذلك كلَّه لأنها تؤمن بقدرتها على صناعة الحياة إيمانًا لا يوازيه إلا إيمانها بأنَّ العمل عبادةٌ تسلَّحت لأدائه على أكمل وجهٍ بسلاح الإصرار والإرادة. وبذلك تكون السيدة هيفاء قد تحررت من البلاء الذي أصاب غالبية العاملين بالعمل العام، وهذه من آفات مجتمعنا التي نجت منها السيدة هيفاء، أعني آفة الفصام النكد بين ما نقول وما نفعل، على خلاف السيدة هيفاء التي حولت أقوالها وأفكارها إلى أفعالٍ ومؤسسات، متحديةً بذلك الكثير من عقبات التخلُّف الحضاريِّ والإداري، وفقر الإمكانيات، مما يشير إلى مُكوّنٍ رئيس من مكونات شخصيتها؛ ذلك هو مُكوِّن الصلابة التي استمدتْها من صلابة جبل النار وجبال البلقاء، فصارت سيدةً عنيدةً

ثابتة، قادرة على الصمود والتحدي، فقد صمدت أمام تحدّي اليُتم عندما عاشت يتيمةً لتربي بعد ذلك أيتامًا عندما تحدَّت مصاعب فقدان الزوج، بعد أن تحدَّتْ مصاعب فقدان الأب ثم الأخ المعيل والراعي، مثلما تحدَّت مصاعب الاحتلالين البريطاني والصهيوني، وكلها تحدياتٌ أسهمت في نضوجها قبل الأوان، وفي قدرتها على الصمود والإنجاز المعتمد على العلم والعمل لتحقيق هدفها الأسمى الذي لخَّصتْه بقولها «تحرير الأرض والإنسان، وتهذيبه من الطغيان والتبعية، واستنهاض إرادة الإنسان الحرِّ المبدع، ليتعلم كيف يعبِّر عن وجهة نظره وسردها والإدلاء بها، من غير خجلٍ أو وَجَل، وتحرّرها من القيود لنعبر للتحرير والتنوير، وتحقيق آمال أبنائنا وطموحاتهم وحلمهم بالرفاه والتنمية».

هذه قراءة سريعة في سيرة السيدة هيفاء البشير ومسيرتها، وفيها يجد المرء أنموذجًا للإنسان المتوازن في كل شيء، وأول ذلك هو التوازن الدقيق بين الالتزام بالواجبات الأُسَريّة مع إيمانٍ مُطلَقٍ بالأُسرة الممتدة المتلاحمة؛ باعتبارها نواة المجتمع الأسياسية.. وبين العمل العام الذي يخدم المجتمع ويبنيه؛ فقد استطاعت السيدة هيفاء أن تحقِّق هذا التوازن لتقدّم بقدرتها على المثابرة وإصرارها على التفوق برهانًا عمليًّا على قدرة المرأة على الإنجاز والنجاح، والأهمُّ من ذلك المحافظة على النجاح، كما فعلت هيفاء البشير التي قدَّمت بمسيرة نجاحها برهانًا عمليًّا على عدم جواز تهميش المرأة؛ وبخاصة المؤمنة بذاتها ودورها، التي يمتلكها الإحساس بالكبرياء والثقة بالنفس، فها هي هيفاء البشير بنْتُ هذه الأرض الملتصقة بها، والمؤمنة بثقافتها وقيمتها وبإنسانها، بصرف النظر عن جنسه ولونه ومذهبه؛ فكم من امرأةٍ بألف رجل!